

# أَبِينِ أَكْبَرِي لِأَبِي الْفَضْلِ بْنِ مَبَارَكِ الْعَلَامِي

بِاسْمِهِ

الدكتور أحمد محمد السَّادِي

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة القاهرة

وبفضل هؤلاء تفتحت عينا أكبر على كثير من المسائل الفلسفية حين سلك معهم طريقهم ، طريق البحث عن الحقيقة ومحاولة الوصول إلى الحق المجرد . وأدى به كلفه بذلك كله إلى أن أقام دار العبادة « عباد تخانة » بمدينة فتحبور سكري حاضرتة الجديدة ، تم بناؤها عام ٩٨٣ هـ = ١٥٧٥ م<sup>(١)</sup> ، لتكون منتدى للفقهاء والمتصوفة وصفوة رجال الفكر والدولة يتدارسون فيها مختلف صنوف المعرفة .

وراح أكبر ، في سبيل دراساته هذه ، يستدعي إليه شيوخ العقائد من بوذية وجينية وبرهمية وزرادشتية ونصرانية ليعرضوا عليه بضاعتهم عليه يبلغ بذلك إلى علة الفروق بينها حين تكفر كل فرقة أختها . ولم يكن ، وهو المفكر الحر ، ليحجم عن إعلان إعجابه بما يعرض عليه من نواحي الخير والمبادئ الإنسانية في هذه العقائد . فاستمع إلى هؤلاء جميعاً في حرية وتسامح مطلق وقت أن كانت أوروبا تحتاحها موجات مدمرة من التعصب الديني ويساق علماءها إلى المواقف بدعوى الهرطقة . ولم يكتف أكبر بذلك كله

يجمع المؤرخون ، وفيهم الهنادكة والأوروييون ، على أن شبه القارة الهندية قد شهدت في عهد السلطان جلال الدين محمد أكبر (٩٦٣ هـ = ١٥٥٦ م - ١٠١٤ هـ = ١٦٠٥ م) ، ثالث حكام الدولة المغولية ، أعظم أدوار الحضارة والثقافية فيها على الإطلاق .

وكان مما أدركه أكبر ببصيرته النفاذة ، كحاكم نابه ، أن بلاده الواسعة هذه لا يمكن إقرار الأمور فيها إقراراً حقيقياً إلا بقيام المواخاة والألفة بين أهلها ، على تباين عروقهم وتفاوت مللهم . فلم يكتف بتقريب الهنادكة إليه وتألف قلوبهم حتى عهد إليهم كذلك بالمناصب الهامة وأصهر إليهم وشجع الناس على ذلك . ودفعه شغفه بالمعرفة آخر الأمر إلى التطلع إلى ما عندهم من ثقافات قديمة ومعتقدات ، فعهد إلى فريق من العلماء بنقل كثير من كتبهم السنسكريتية القديمة إلى الفارسية لسان الثقافة بالهندستان إذ ذاك .

ويرجع الفضل في توجيه أكبر إلى البحث والاستقصاء عامة إلى ثلاثة من العلماء المسلمين هم الشيخ مبارك ناكوري وولده فيضي ثم أبو الفضل الذي وزر له من بعد ذلك وصار من أصدق خلصائه ومستشاريه .

(١) منتخب التواريخ لعبد القادر بن ملوك شاه بداوني طبع كلكتا ١٨٦٥ م ثان ص ٢٠٠ .

حتى دعى هؤلاء جميعاً إلى الاجتماع في مؤتمر للأديان  
عنه يدعم بذلك أخوة الإنسان لأخيه الإنسان . لكن  
هؤلاء الأعلام لم يتبادلوا فيما بينهم إلا أفضع التهم  
والشتائم<sup>(١)</sup>.

وعلى ذلك فقد أدرك أكبر ، قبل أن يأتي الفلاسفة  
المحدثون بزمان طويل ، أن المعتقدات الدينية لا تخضع  
خضوعاً تاماً للعقل المجرد وحده<sup>(٢)</sup>.

فعل أكبر هذا كله بتوجيه ومشاركة من الشيخ  
مبارك وولديه أبي الفيض فيضى وأبي الفضل .  
وبمشاركتهم ؛ كذلك خرج على الناس بمذهبه المعروف  
باسم « دين إلهي » كمحاولة أخيرة للتخفيف من حدة  
الخلاافات المذهبية والعقائدية في بلاده<sup>(٣)</sup>.

والحركة الثقافية العظيمة التي شهدتها الهند في ذلك  
العصر ، والتي لم يكن لها نظير لوقتها بالعالم كله - حتى  
وقف المؤرخ بداوني الجزء الثالث من كتابه الكبير  
على ذكر المشتغلين بها من المفكرين والأدباء والفقهاء  
وأصحاب الفنون - لم تكن هي وحدها التي أذاعت  
من شهرة أكبر فحسب ، بل وكذلك طريقته في الحكم  
وتنظيمه لشئون دولته الذي خرج بتفصيله على الناس  
وزيره ومستشاره أبو الفضل بن مبارك في سفره  
الضخم الموسوم بآيين أكبرى موضوع هذا المقال .

\* \* \*

كان أسلاف أبي الفضل من العرب الذين نزلوا  
بالسند وظلوا يقطنون هناك حتى قدم جده لأبيه ،

(١) من الطريف أن أحد المتناظرين من شيوخ المسلمين اقترح  
أن تختبر المسيحية بإزاء الإسلام بمحنة النار ، وذلك بأن يخوض  
وأحد القساوسة اللهب ، فن خرج سالماً منها كانت فرقته هي صوت  
الحق في الأرض ، لكن اليسوعيين رفضوا ذلك وخافوه - بداوني  
ثان ٢٩٩ .

(٢) اختلال التوازن العالمي لجوستاف لوبون - القاهرة  
١٩٢٨ ص ٣٥١ .

(٣) سفشير إلى هذا المذهب في الصفحات التالية .

ويدعى الشيخ خضر ، إلى الهندستان ونزل بقرية  
ناكور عند الشمال الغربي لآجمير حيث لزم أحد  
الصلاح ، ويدعى مير سيد بخارى ، وكان هو نفسه  
من المشتغلين بالتصوف . وفي هذا المكان ولد له عام  
٩١١ هـ ابنه مبارك وهو والد أبي الفضل .

وأغرم مبارك بدوره منذ صغره بصحبة الشيوخ  
والصلاح . وقد تعرض في صدر شبابه لختين شديتين  
إذ مات أبوه وهو في طريقه لزيارة مسقط رأسه  
بالسند ، كما حل بموطنه الجديد في الوقت نفسه وباء  
قضى على كل أفراد أسرته جميعاً .

والمشهور عن الشيخ مبارك هذا أنه شغف  
بالتحصيل منذ صغره في كافة نواحي المعرفة ، وقد  
تأثر كثيراً بتعاليم الولي المشهور خواجه أحرار (المتوفى  
بسمرقند ٨٩٥ هـ) .

وفي طلب الاستزادة من العلم قصد الشيخ مبارك  
إلى مدينة أحمد آباد حيث تتلمذ على واعظ مشهور  
هناك يدعى أبو الفضل أصله من كازرون بایران .  
وما لبث بعد عدة سنوات أن عاد إلى الهندستان وذلك  
عام ٩٥٠ هـ فحط رحاله على شاطئ جمنه مقابل آجرا  
عند ولي مشهور آخر هو مير رفيع الدين الصفوى  
الانجوى وسرعان ما نال الخطوة عنده . وفي هذا  
المكان ولد له ابنه الأكبر أبو الفيض فيضى عام ٩٥٤ هـ  
ورزق من بعد ذلك بسنوات أربع بابنه الثاني  
أبي الفضل<sup>(١)</sup> وكان هو نفسه قد بلغ الخمسين من عمره  
إذ ذاك . وكان الشيخ مبارك يلفت الأنظار إليه بعلمه  
الغزير وثقافته الواسعة التي غنى بتلقينها ولديه فيضى  
وأبي الفضل فيما بعد ، والتي كانت تنبئ عن سعة أفقه  
وحرية تفكيره مما أثار عليه طائفة من مزمتى الفقهاء  
والمؤرخين فتشككوا في سلامة عقيدته هو وأولاده .

(١) بذلك يكون أبو الفضل قد ولد في عهد آل شيرشاه  
سورى ذلك الأمير الأفغانى الذى استطاع إخراج هاميون ، والد  
أكبر ، من الهند فلم يده إليها إلا بعد سنوات خمسة عشر .

وما لبث أن انضم الشيخ مبارك إبان حكم آل شيرشاه إلى بعض الفرق الشيعية التي كانت تقول بظهور المهدي في ختام الألف الأولى من الهجرة ، مستندين في ذلك إلى أحاديث موضوعية تشير إلى ذلك ، وأنه سيكون من أبناء فاطمة الزهراء فيملاً الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

وأخذت مثل هذه الدعاوى تنتشر في أماكن متعددة بالهند ، وادعى المهديّة نفسها كثيرون حتى نشط السلطان إسلام شاه سوري لحربهم والقضاء عليهم ، واستمرت مطاردتهم من بعد ذلك أيام أكبر بدوره . على أن الشيخ مبارك استطاع آخر الأمر أن يحصل على عفو من أكبر وذلك بتوسط الخان الأعظم ميرزا كوكا أخى السلطان في الرضاة ، ومن ثم سار من الكجرات ، حيث كان يختبئ ، إلى أجرا . وما لبث ابنه أبو الفيز فيضى أن بلغ بأشعاره<sup>(١)</sup> مركزاً مرموقاً في البلاط أتاح له الاتصال بالسلطان نفسه .

في ذلك الوقت كان أبو الفضل يواصل التحصيل والدرس في كنف أبيه ، فلم يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى كان قد قرأ قدرأ كبيراً من كتب المعقول والمنقول ، ليجلس من بعد ذلك للتدريس ولما يبلغ العشرين من عمره ، على ما فعل أبوه من قبل . وهنا تقول الرواية ، في سبيل التدليل على علمه الغزير ، انه كان قد وقع بيده نسخة من كتاب الأغاني أصابها التلف في مواضع كثيرة ، فاذا هو يملئ من ذاكرته وإنشائه مكان المؤلف من الكتاب بما يناسب المقام ؛ وحين تيسر له من بعد ذلك الحصول على نسخة كاملة من هذا الكتاب وطفق القوم يراجعونها على ما أنشأ من قبل لم يجدوا ، لفرط دهشتهم ، فروفاً في المعنى

تذكر بين النصين فضلاً عن شروح له وإضافات كثيرة قيمة .

كان من الطبيعي أن يجد مثل هذا العالم الترحيب والرعاية عند سلطان شغوف بالدرس والتحصيل بدوره مثل جلال الدين أكبر حين قدموه إليه عام ٩٨١ هـ = ١٥٧٤ م . وفي هذا يقول أبو الفضل في كتابه أكبر نامه الذى ضمنه تاريخ التيموريين :

« لقد زاد كثرة تلاميذى من الغرور في نفسى ، ودفع بي الإمعان في الدرس والتحصيل إلى طلب العزلة . ولكم كنت أشعر بالسعادة والرضا وأنا أقضى الليالي منفرداً بطلاب الحق والباحثين عن الحقيقة المجردة بما يعمر ذهنى ويشرح صدرى ، لتتفتح من بعد ذلك عينى على مدى الأنانية والجشع الذى يمكن في نفوس من يدعون العلم والمعرفة . ولكم كنت أشتاق للوقوف على الحكمة عند المغول ودروز لبنان أو مناظرة لامات الثبت وقساوسة البرتغال والاستماع إلى كهنة البارسيين وحملة الأبتاق<sup>(١)</sup> . ولقد ضقت ذرعاً بعلماء بلادى حتى نصحنى أخى وبعض أقارنى آخر الأمر بأن ألتحق بالبلاط ، وقد أملوا بذلك أن أجد عند السلطان الهداية إلى مثل الفكر السنية . ولئن كنت قد عارضتهم في ذلك أول الأمر إلا أنى وجدت ، لحسن طالعى ، من بعد ذلك ، في السلطان خير رائد ومرشد لى في دنيا الواقع مما بعث السكينة في نفسى وأشاع الطمأنينة في وجدانى . ففيه اجتمع لى شوقى للتحصن بالإيمان وتحقيق أملى في أن أقوم بالدور الذى قدر لى القيام به في دنياى . فهو المشرق الذى تبرز منه أنوار الإبداع والمثل ، وهو الذى علمنى أن العمل الدنيوى ، على تعدده وتنوعه ، لا يتعارض مع جوهر الحقيقة » .

وحين لقي أبو الفضل السلطان أكبر لأول مرة

(١) كان للبرتغاليين إذ ذاك بعض مستعمرات صغيرة بشاطئ الهند الغربى - أما البارسيون فهم زرادشتي فارس الذين هاجروا عند الفتح العربى إلى الهند ؛ والأبتاق هو كتابهم .

(١) كان فيضى كذلك على نبوغ في الكتابة وفي الطب كذلك ، وإمالج الناس بالبحان ، وقد ترك مكتبة قيمة كانت تضم خمسة آلاف مجلد - بداوى ثمان ٣٠٥ .

رفع إليه تفسيراً لآيات الكرسي تلقاه منه بالقبول .  
كما قدم إليه من بعد ذلك بالمسجد الجامع بمدينة  
فتحبور سكرى تفسيراً آخر لسورة الفتح وذلك عقب  
عودته من فتح بهار والبنغال .

وكان من الطبيعي أن لا يرحب زعماء السنة  
المستمسكون من أمثال مخدوم الملك شيخ العلماء والشيخ  
عبد النبي صدر جهان (قاضى القضاة) بقدم أمثال  
أبى الفضل والتحاقهم ببلاط السلطان لما ذاع عنهم من  
تحرر فكرى مفرط .

وتألق نجم أبى الفضل فى ندوات الجمعة التى كان  
يعقدها السلطان بحضور العلماء جميعاً كل أسبوع . وكان  
ما يهم أكبر إذ ذاك ويشغل باله هو توحيد سكان الهند  
جميعاً فى ظل دولته ، وذلك بتقريبهم جميعاً إليه  
والعمل فى الوقت نفسه على القضاء على الخلافات  
المذهبية بينهم ، وقد استبان له ، بايعاز من أبى الفضل  
وإقناع منه ، أن هذا الأمر لن يتأتى له إلا إذا جمع هو  
نفسه فى يديه السلطتين الدينية والزمنية . وصار ، بوصفه  
مجتهداً ، مصدر التشريع فيهما معاً . وما لبث الفقهاء فى  
بلاطه بعد معارضة قصيرة أن أقرروه على هذا الأمر على  
كره منهم ورضوا له بالاجتهاد فى ذلك .

وكانت دراساته إذ ذاك مع أبى الفضل وصحبه قد  
هدته إلى وجود جملة من الفضائل المشتركة فى مختلف  
عقائد الهند لها نظائرها فى الدين الخفيف . وما غدا  
بلاطه أن صار بتسامحه ملتقى لرجال العقائد جميعاً  
وأعيان الهند على اختلاف أجناسهم ، فانقلب بذلك  
الهنداكة من أعداء للدولة إلى خدام لها يعملون على  
النهوض بها .

وخلا الجو آخر الأمر لأبى الفضل وشيعته برحيل  
مخدوم الملك والشيخ عبد النبي<sup>(١)</sup> صدر جهان إلى

(١) لم يمنع أكبر خلافة فى رأى مع هؤلاء العلماء من أن يبدى  
لهم كل توقيف حتى كان يحمل للشيخ عبد النبي نعليه بنفسه .

الأراضى المقدسة ، وصار هو وأخوه فيضى من  
أخلص ملازمى السلطان وأكبر مستشاريه لا يفارقانه  
أبداً ، سواء فى إقامته بقصره أو فى أسفاره وغزواته .  
وغدا هذا الأخير هو شاعر البلاط ، وكان جديراً بذلك  
إذ لم تعرف الهند شاعراً فى درجته منذ أيام شاعرها  
الكبير خسرو الدهلوى .

ولم يمس إلا القليل حتى خرج أكبر على الناس  
بمذهبه الذى يعرف باسم «دين إلهى» ويقوم على  
التوحيد الكامل والاعتراف بالسلطان بوصفه ظل الله  
على الأرض ، ويختلط فيه التصوف بكثير من الفضائل  
المشتركة بين الإسلام وعقائد الهند الأخرى . وقرن  
أكبر لإعلانه لمذهبه هذا باصدار طائفة من التشريعات  
الاجتماعية المفيدة ، فمنع عادة الساقى ، حيث تقبل  
الأيام على حرق نفسها مع جثمان زوجها ما لم يكن لها  
ولد ، وأباح الزواج لأرامل الهنود ، وحض الناس  
على الإكتفاء بزوجة واحدة مع الابتعاد عن البناء  
بالأقارب محافظة على سلامة النسل ، ومنع زواج  
الأطفال وزواج النساء المتقدمات فى السن بشبان  
يصغرن فى العمر ، كما حظر استرقاق أسرى  
الحرب ، ورفع ضريبة الرعوس عن كاهل الهنداكة ،  
وقصر تناول الشراب على التداوى وبتصريح خاص :  
وكان أبو الفضل هو ساعده الأيمن فى ذلك كله .

وبجاء ظهور هذا المذهب فى بداية الألف الثانية  
من الهجرة إيذاناً بالعمل بتقويم جديد ، اتخذ أكبر  
وأشاعه فى دواوين الدولة ، وهو ما يعرف بالتقويم  
الإلهى أو الألفى .

على أن أكبر لم يرغم الناس أبداً على الدخول فى  
مذهبه الجديد هذا<sup>(١)</sup> . ولم يشع ظهور هذا المذهب القلق

(١) يرى العالم الهندى السيد أمير على أن أكبر لم يغفل أبداً  
تعاليم الإسلام مستمسكاً بفضائله ، ويأخذ عليه فقط تأثره بفكرة  
التناسخ عند الهنود وإعجابه بما تدعو إليه الويشنوية من ضرورة  
اكتشاف الإنسان لنفسه وإدراك شخصيته خارج الحدود التى تفرضها  
التقاليد الدينية . (Islamic Culture, 1927)

في نفوس كبار رجال الدولة بقدر ما أشاعه ازدياد نفوذ أبي الفضل بالبلاط حتى زاد عدد الخانقين عليه منهم وجهدوا جميعاً ، ومعهم الأمير سليم ولي العهد ، في العمل على إبعاده من هناك .

وفي عام ١٠٠١ هـ مات الشيخ مبارك وهو في التسعين من عمره ، ولم يمض عامان على ذلك حتى لحق به ابنه فيضي . وما لبث في العام التالي لذلك أن بعث السلطان بأبي الفضل إلى الدكن ليعود من هناك بابنه الأمير مراد وكان قد انصرف بكليته إلى الشراب ، حتى راح ضحيته فيما بعد ، دون أدنى التفات إلى شئون تلك الولاية الكبيرة التي بذلت لها الدولة الأموال الكثيرة وكلفتها الآلاف من الضحايا . وقد استطاع أبو الفضل بكفايته أن يقر الأمور هناك بنجاح كبير على أي حال . وما غدا أكبر أن لحق به هناك فضمه إلى قواته وشاركه فتح حصن عسير .

وفيما كان أكبر مشغولاً بحصار هذا الحصن إذا بابنه سليم يعلن خروجه عليه وينادى بنفسه سلطاناً في إله آباد الدكن ومن ثم أخذ يضرب السكة باسمه ويرسل بها إلى أبيه إمعاناً في استثارته . وأدى انخياز بعض قواد الدولة إلى صف هذا الأمير الثائر إلى أن أسرع أكبر بالعودة إلى حاضرتة ، كما استدعى إليه في الوقت نفسه وزيره أبا الفضل من الدكن على أن يعهد بقيادة قواته هناك إلى ابنه عبد الرحمن . وحين علم الأمير سليم برحلة أبي الفضل من الدكن ، وهو في نفر قليل من الجند ، وجد في ذلك الفرصة المواتية للتخلص من وزير أبيه هذا وكان يكن له كراهية شديدة . وسرعان ما قبل راجا بير سنغ ، أحد الأمراء الراجپوتيين ، الاضطلاع بمهمة اغتيال أبي الفضل أثناء مروره بأراضيه . وبرغم أن أبا الفضل كان قد أحيط علماً بما يدبره له الأمير سليم فإن كبرياءه منعتة من التحول عن طريقه إذ لم يكن يتصور أن كائناً من كان يجروء على التعرض له وهو في طريقه إلى بلاط السلطان ،

حتى لقد رفض أن ينكص على عقبيه حين لاح له الخطر جلياً ورأى جموع العدو تخرج عليه ، فأخذ يدافع عن نفسه في بسالة نادرة حتى سقط مدرجاً بدمه . وهناك اجثت بير سنغ رأسه وبعث بها إلى الأمير سليم (١) .

ويحتج الأمير سليم في ذلك بأن أبا الفضل كان يوغر صدر أبيه عليه على الدوام ، وأن عودته إلى البلاط سالماً من جديد كان فيه القضاء على كل أمل له في إعادة الأمور إلى مجاريها بينه وبين أبيه .

وبلغ الحزن بأكثر مبلغه حين علم بمقتل وزيره وصديقه وشيخه أبي الفضل حتى اعتزل الناس أياماً عدة ، ليصرح من بعد ذلك بأنه ود لو كان هو المقتول مكانه ، فنوايغ العلماء — على حد قوله — لا يجدوهم الزمان إلا في القليل النادر بخلاف الملوك وإن صلحوا (٢) وبعث أكبر من بعد ذلك بقواته تطلب القاتل ، وكادت تظفر به بالفعل لولا أن وافى السلطان أجله وجلس ابنه سليم مكانه .

وبرغم تباين الآراء في سلامة عقيدة أبي الفضل فهناك ما يشبه الإجماع على أن سلوكه كان مجرد سلوك رجل متصوف ظل طوال عمره يزهّد كل لقب أراد السلطان أن يكرمه به ، فضلاً عن شدة تواضعه ودعته وميله الشديد إلى المسألة والبر بالناس . وكان من أبغض الأمور إلى نفسه أن يعزل العامل من منصبه حين يستبين له فشله فيه ، فيتيح له الفرصة من جديد لإثبات كفايته في منصب آخر .

وإلى جانب مكانته السياسية فقد كان كذلك من أصحاب الأقلام البليغة القلائل الذين عرفهم الحياة

(١) نشر رحالة هولندي يدعى دي لايت de Laeat عاصر هذا الحادث بالهند تفصيلاً له ذكره الأستاذ E. Lethbridge في Fragments of Indian Hist., Calcutta Review, 1973.

(٢) تكتة أكبر نامه لعناية الله (مجموعة اليوت وداسن ج ٦) ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ .

الأدبية بالهند حتى عُرف بالمشيء الأكبر . وبلغ من روعة أسلوبه ووقعها في الناس أن قال عنه بعض أعدائه بالهند أنهم يخافون قلمه أكثر مما يخافون سهام السلطان ؛ ومع هذا فلم ينكر عليه أحد منهم عفة قلمه وترفعه عن الدنيا .

والواقع أنه بالتحاقه ببلاط آكرا بدأت أزهى فترات حكم أكبر ، تلك الفترة التي تحقق فيها تآلف شعوب الهند جميعها على اختلاف مللهم ونحلهم في ظل السلطان فانقلبوا جميعاً ، بحسن تدبير أبي الفضل ورجحان آرائه ، إلى خدام للدولة يساهمون في تقدمها ويشيعون الأمن والسلام في كافة أراضيها .

\* \* \*

## آيين أكبرى

من آثار أبي الفضل الأدبية التي بقيت لنا حتى اليوم كتاب « عيار دانش » ، وهو ترجمة بالفارسية الإسلامية رصينة الأسلوب لكتاب كليله ودمنة عن الفارسية الدرية التي كان قد نقل بها هذا الكتاب عن العربية أبو المعالي نصرالله في القرن السادس الهجري ، ثم مجموعة من رسائله البليغة تشتهر باسم « مخاطبات علامى ورقعات شيخ أبي الفضل » . هذا فضلاً عن مشاركته في تأليف « تاريخ ألفى » عن وقائع التاريخ في الألف سنة الأولى من الهجرة ، وإشرافه على نقل بعض الكتب النسنسكريتية إلى الفارسية ، لسان الثقافة في الهندستان لوقته ، على ما نشير إليه في النموذج الأول بالصفحات التالية .

على أن أعظم أعماله الأدبية التي أذاعت من شهرته هي مجموعته الموسومة بأكبر نامه . وهي تنقسم إلى قسمين رئيسيين : فالقسم الأول منها تناول المؤلف فيه تاريخ أسرة تيمور منذ أول ظهورها على مسرح التاريخ ثم تأسيس الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر ، جد أكبر ، للدولة المغولية بالهند ، وعهد ابنه

همايون ، وحكم أسرة شير شاه سورى . حتى إذا ما وصل إلى عهد سلطانه أكبر خصه بالقسم الأكبر من كتابه وفصل فيه الحديث عن ستة وأربعين عاماً من حكمه . ويقع هذا كله في ٣٨٦ ورقة ( أى ٧٧٢ صفحة ) . (١)

أما القسم الثانى من هذه المجموعة فهو الموسوم بآيين أكبرى ، وهو كتاب قائم بذاته ، ويقع في مجلدين بالأول ٢١٧ ورقة وبالثانى ٢٧٢ ورقة ( أى ٩٧٨ صفحة معاً ) . (٢)

ويعد آيين أكبرى هذا أعظم ما كتب مؤرخو الهند المسلمين على الإطلاق . ولئن كان هذا الكتاب لا يعد في الواقع تاريخاً بالمعنى العام ، فهو يعطينا على كل حال صورة مفصلة واضحة لنظم حكومة أكبر ويجمع بلاده إذ ذاك . والآيين ، اصطلاحاً ، هو العادات والعرف والتقاليد والشرائع والنظم ، وهذا كله هو ما قصد به أبو الفضل من وراء تأليف كتابه هذا .

ويقع هذا الكتاب في مقدمة وخمسة أجزاء . ويبدأ أبو الفضل في مقدمته هذه بشرح كلمة الملك وواجباته . فيقول في تفسير كلمة شاه ، أى ملك ، أن المقصود بها أصلاً التفوق على الأقران ، ويبين أن هناك فارقاً كبيراً بين الحاكم الجدير بالملك الخادم لأُمته والحاكم الذى لا هم له إلا إشباع غرائزه وشهواته . فهو حين لا يتعلق بأسباب القوة والجاه والثراء بقدر ما يجعل شغله الشاغل هو القضاء على الظلم مع إحقاق الحق في كل شيء على أكمل وجه ، ينتج عن صنيعة هذا إشاعة الأمن في الناس وإقرار العدل بينهم وذبوع الفضائل عندهم وتمكن الإخلاص من نفوسهم . في حين يودى تعلقه بمظاهر السلطان والتفاتة إلى أغراضه الخاصة ومآربه فحسب إلى إشاعة الفتنة

(١) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨-م تاريخ فارسى .

(٢) وهو مخطوط في مجلدين بدار الكتب برقم ٥٠ تاريخ فارسى وهو المرجع في هذا المقال .

فى الناس وانتشار الظلم بينهم وتسرب الخيانة إلى نفوسهم وانعدام الولاء عندهم .

ويرى من بعد ذلك أن الحاكم العادل لا بد وأن تتوفر فيه صفات أربع :

الأولى : أن يحب رعاياه كما يحب أبنائه ، وبذلك يجد الناس الطمأنينة والراحة فى عهده ، ويستطيع هو بدوره أن يصل بحكمته إلى تحقيق أهدافه .

والثانية : أن يكون صاحب قلب كبير ، رحب الصدر ، يغلب عليه الحلم ، شجاعاً لا يخشى فى الحق لومة لائم ، فلا يجابى مخطئاً لحسبه أو نسبه ، ولا يمل الاستماع إلى شكاوى الخلق أو يتوانى فى تحقيق أمانهم .

والثالثة : أن يكون على صلة وثيقة بربه يزداد اعتقاده فيه يوماً عن يوم ويوقن يقيناً قوياً بمشيئته فى إبرام الأمور وقضائها وأنه هو الفعال لما يريد .

والرابعة : أن يواظب على تأدية الفروض والعبادات لا تلهيه عنها مفاتن الحياة أو تصرفه تصارييف الزمان وغيره عن ذكر الله ، يسعى على الدوام إلى ما فيه صلاح الناس ورضاء الله ، ولا يتوانى عن انصاف المظلوم .

وهو من بعد ذلك يسلك الناس فى طبقات أربع كذلك :

الطبقة الأولى ، وهم رجال الجنديّة ، ولهم فى الكيان السياسى طبيعة النار التى تحرق ما تزرعه الفتنة من الخبث ، وتضىء كذلك مصابيح الطمأنينة فى هذا العالم المضطرب .

أما الطبقة الثانية فهم أصحاب الحرف والتجار ، وهم بمثابة الهواء ، فبفضل أسفارهم وجهودهم تعم الناس نعم الله وتزدهر شجرة الحياة الموردة بنفحات الرضا والسعادة .

وأما الطبقة الثالثة فهم العلماء ، وفيهم الفلاسفة والأطباء والمشتغلون بالرياضيات والفلك . وهم بمثابة

الماء . فبما تجرى به أقلامهم وما ينطقون به من آيات الحكمة يفيض نهر الحياة فى هذه الدنيا القاحلة وينتعش بستان الخليفة أيما انتعاش .

والطبقة الرابعة هم الزراع والعمال ، وهم بمثابة الثرى ، فبكدّهم وجدّهم تنمو شجرة الحياة وتشيع القوة والسعادة فى الناس .

لذلك وجب على الحاكم أن يضع كل واحد من هؤلاء جميعاً فى مكانه اللائق به ، ففى تنسيق جهود هؤلاء جميعاً معاً صلاح الدنيا وتقدمها .

ولما كان الكيان السياسى لا يستمد وجوده عنده من هذه الطبقات الأربع وحدها فهو يرى لذلك أن الحكم بدوره لا يستكمل مقوماته إلا إذا ارتكز كذلك على طوائف أربع :

الطائفة الأولى ، وهم رجال الدولة ، وبثقة السلطان فيهم واعتماده عليهم تسير الأمور على أحسن وجه ، وهم الذين يبيعون أرواحهم فى حومة الوعى بيع السماح . وعلى رأس هؤلاء الوكيل ( كبير الوزراء ) ، وهو نائب السلطان فى إدارة شئون الدولة . ومثل هذا الرئيس يجب أن يكون من حنكتهم التجارب يتسم بالحزم والحكمة وسعة الأفق ، ميالاً إلى السلام ، يعامل الناس جميعاً على قدم المساواة سواء فى ذلك خصومه منهم أو أصدقائه ، لا يلق القول على عواهنه ، متمسكاً بواجباته ، أميناً على أسرار بلاده ، يرى من واجبه قضاء حقوق الناس ، ويبذل لهم البشاشة والاحترام ما وسعه ذلك حتى يكتسب محبتهم جميعاً .

وإلى جانب الوكيل يذكر أبو الفضل طائفة من كبار موظفى الدولة هم بمثابة خاصة السلطان ، كحامل الأختام وعارض الشكاوى ومدير المراسم ، وما ينبغى أن يتوفر فيهم من الكفاية وحميد الخصال .

أما الطائفة الثانية فقد جعل أبو الفضل على رأسها الوزير ويعرف بالديوان . وهو نائب السلطان فى شئون

المال ، ويشترط فيه أن يكون قديراً في الحساب مقتصداً في غير بخل ، صادقاً غيوراً في عمله .

ويسلك معه أبو الفضل جملة من كبار عمال الدولة كالمستوفي والخازن والمشراف على مصانع الدولة<sup>(١)</sup> ومدير الشؤون المالية للجنود وكبير الكتاب .

وأما الطائفة الثالثة فهم خاصة السلطان . وهم يزینون البلاط بأنوار حكمتهم وغزير علمهم مع معرفتهم المكيئة بطبائع البشر فضلاً عما جبلوا عليه من الصراحة والأدب الجم . وبهم تشرح صدور البشر وتزدهر الحياة . فاذا كانوا على غير ما ذكرنا من الصفات امتلأت الدنيا بالشرور واجتاحتها المصائب وعمها الخراب .

وعلى رأس هذه الطائفة يقف الفلاسفة الذين ترتقى بحكمتهم ومثلهم نواميس الأمة الأخلاقية . وتضم هذه الطائفة الصدر ( المفتي ) وأمير العدل ، وهو المنوط به تنفيذ الأحكام ، ثم القاضي ، وهو المنوط به سماع الدعاوى .

وأما الطائفة الرابعة فهم خدم السلطان ، وهم إذا أحسنوا الخدمة كانوا بمثابة ماء الحياة للبدن ، والا كانوا آفة وبلاء ومصدراً لكدر العيش .

وهو بعد إذ يصرح أن هؤلاء جميعاً إنما يستلهمون في أعمالهم ما أوتي سلطانهم من الحكمة ورجحان العقل وعلو الهمة ، يعلن أنه يُخرج للناس على ذلك كتابه هذا وفيه يحاول أن يسجل فعاله العظيمة ومآثره العجيبة التي تنبئ عن عظيمته كسلطان .

والقسم الأول من كتابه ، ويشتمل على تسعين آييناً ، يتحدث فيه عن بلاط السلطان وخاصته ، فيذكر لنا ما عند الپادشاه من أموال وكنوز وجواهر كريمة ، وما يجري ضربه في دار المسكوكات من

(١) يذكر كثير من المؤرخين أنه كان عند أكبر أكثر من مائة مصنع ضخم للنسيج والصبغة والأسلحة .

العملات الذهبية والفضية والنحاسية ، ومعايير كل نوع منها ، وطبيعة المعادن التي تستخدم فيها . كذلك يتحدث عن حريم السلطان ومضاربه وأختامه ومراسم الخدمة في البلاط ؛ ليذكر لنا من بعد ذلك ثبناً طويلاً يبين فيه أنواع المحصولات المختلفة ومواسمها وأسعارها والعطور وطرق استخراجها ، ومصانع النسيج من الحرير والقطن والصوف ومبلغ اهتمام الپادشاه بتقديم العمل فيها . ثم يشير من بعد ذلك إلى الأيام التي كان يتمتع فيها أكبر عن تناول اللحم وكانت كثيرة<sup>(١)</sup> . كما يكتب كتابة خبير كذلك عن الألوان وطرائق تركيبها ومزجها ، ليفرد من بعد ذلك في كتابه باباً طريفاً ممتعاً يتحدث فيه عن الخطوط وتاريخها ، مع الإشارة إلى كبار الخطاطين ، وحركة التأليف والترجمة بالبلاط . ويختم هذا الفصل بالكلام على فن التصوير وندواته التي كان يعقدها السلطان بالبلاط مع ذكر كبار النقاشين في عصره ورأى الپادشاه القيم في هذا الفن . ثم ينتقل من بعد ذلك إلى بيان مختلف الأسلحة التي يستخدمها الجيش وصنوف دوابه ، ومنها الفيلة والجمال والخيول ، وفصائلها وأنواع علفها وطرق العناية بها . كما يتحدث عن مبادئ المذهب الإلهي الذي ابتكره أكبر ومراسم التحية فيه<sup>(٢)</sup> ؛ ويختم هذا القسم من الكتاب بذكر مواد البناء وأسعارها وأجور العمال المشتغلين بها .

وفي القسم الثاني من الكتاب ، ويشتمل على ٣٠ آييناً ، يتحدث أبو الفضل عن أقسام الجيش وقواته

(١) كان أكبر يحتاج في ذلك بأنه لا يليق بالإنسان أن يعمل من جوفه مقبرة للحيوان .

(٢) كان القادم منهم يحبى صاحبه بقوله « الله أكبر » فيرد تحيته بقوله « جل جلاله » وحين أترض البعض على ذلك مخافة أن يحمل هذا القول على دعوى الألوهية إذ كان السلطان يدعى « جلال الدين أكبر » رد السلطان على ذلك بأن كل ما في الأمر هو موافقته لمقتضى الحال « فكيف للإنسان أن يدعى الألوهية بعجزه وضعفه » بدأوني ثان ص ٢١٠ .



(خاندش) و بدار والكجرات وآجمير ودهلي ولاهور بالإضافة إلى إقليمى كابل وكشمير . وهو يذكر لنا فى ذلك الأقسام الإدارية لكل ولاية ومساحتها ، كما يصف موقعها الجغرافى ، وما يجرى فيها من روافد وأنهار ، وما بها من المدن والحصون والقلاع ، وما تغله من الحاصلات ، وما يحصل منها من أموال الخراج ، وما بها من قوات حربية من الفرسان والمشاة ، ويقدم ذلك كله بمجمل يذكر فيه تاريخ كل ولاية من هذه الولايات منذ أقدم عصورها حتى وقت تأليف كتابه .

أما القسم الرابع فيستهل بدراسة الفضاء والأفلاك والبروج السماوية ومواقعها والنجوم والكواكب ومسالكها . ثم يذكر من بعد ذلك أقسام العالم السبعة وما يقع بكل قسم منها من الأقاليم والبلدان مع الإشارة إلى عروق السكان والأجناس فى تلك المناطق جميعاً . وينتقل من بعد ذلك إلى الحديث عن الفلسفة الهندية فيذكر لنا أن بالهند ستين وثلاثمائة من المناهج الفلسفية المختلفة ، وأنه قد وقف على ذلك من أفواه رجال مختلف مدارس الهند الفلسفية وبطون كتبهم . وحصر تلك المدارس الفلسفية فى تسع ، ثمان منها تؤمن بالبعث والنشور والتاسعة تنكر وجود خالق للكون ولا تعترف ببداية الخليفة أو نهايتها . وهو لا يكتفى بالإشارة إلى ذلك كله حتى يتحدث عن مؤسسى تلك المدارس وطرائقها فى البحث ومبادئها ومعتقداتها ويقارن بينها وبين ما عند غيرها من الأمم الأخرى كاليونان وفارس . ويعقد من بعد ذلك فصلاً يتحدث فيه عن الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها ، ليفضى إلينا من بعد ذلك بمجمل يذكر فيه من وفد إلى أرض الهند من مشاهير الأعلام والغزاة مبتدئاً بقصة نزول آدم فى جزيرة الياقوت (سيلان) ومن ورد ذكرهم كذلك فى أساطير الهند من الأبطال ، إلى أن ينتهى بذكر الغزاة المسلمين وأولهم محمد بن القاسم الثقفى ثم الغزنويين والغوريين من بعده

وقادته ونظمه وطرائق تدريبه ، ثم يذكر لنا من بعد ذلك ما يقوم به الكتاب من أعمال فى الدولة ، والنظام الذى يقوم عليه توزيع الصدقات ؛ لينتقل من بعد ذلك إلى وصف حفلات الأعياد ومنها الاحتفال بوزن السلطان والأمراء وأبنائه وأحفاده . ويجرى هذا الاحتفال مرتين فى العام يوزن الواحد منهم عدة مرات فى كل دورة بما يعادل ثقله من الذهب أو الفضة أو المعادن الأخرى والحبوب والأقمشة ويبذل ذلك كله للفقراء صدقة . وهذا التقليد تمارسه اليوم معدلاً طائفة الإسماعيلية بإزاء زعيمهم (١) .

كما يتحدث كذلك عن نظم التعليم ، ويفرد باباً يصف فيه حفلات الصيد وطعام الوحوش والحيوانات البرية ، وفنون الرياضة التى كانت تمارس فى عهده ومنها لعبة «جوكان» التى كانت تنتشر فى الهند انتشاراً واسعاً ، وقد طورها الأوروبيون عندهم فيما بعد فكانت الهوكى أو البولو . ولا يزال أبناء شبه القارة الهندية من باكستانيين وهنود هم أبطالها فى العالم حتى اليوم .

ويبدأ القسم الثالث ، وهو يشتمل على ١٦ آييناً ، ببيان التقاويم المختلفة منذ عرفها البشر حتى اليوم ، ومنها التقويم القبطى والتقويم الرومانى والتقويم المسيحى وتقويم يزدجرد والتقويم الجلالى الذى وضعه عمر الخيام لملكشاه السلجوقى والتقويم الإلهى الأكبرى ويقارن بعضها ببعض . ثم يذكر من بعد ذلك أصحاب المناصب الكبرى فى الدولة ومنهم القواد وأمراء العدل والقضاة وعمال المكوس وخزنة بيت المال ورؤساء الشرطة ويفصل فى ذلك ما يضطلع به كل واحد منهم من أعمال ؛ لينتقل من بعد ذلك إلى الكلام عن إمارات الدولة وولاياتها وهى اثنتا عشرة : البنغال ومعها أوريسة ثم بهار والله آباد وأوده وآكرا ومالوه وداندش

(١) لا يزال هذا التقليد قائماً بتلك البلاد حتى اليوم حيث يتصدق الناس بما يعادل وزنهم من الحبوب .

نظم الدولة الإسلامية الهندية وطرق حكم تلك البلاد المترامية الأطراف ، وما بها من مصادر الثروة ومختلف الصناعات ، وما لأهلها من معتقدات وتقاليد ، وما اشتغلوا ويشغلون به من مختلف صنوف المعرفة . كتب ذلك كله في أسلوب يعد من خير أمثلة النثر الفارسي بالهند وينم عن علم واسع غزير وجلد في الدرس والبحث مكين شديد .

### الغرض الأول

آيين تصوير خانة<sup>(١)</sup> :

### فنون الكتابة والنقش

إن ما نسميه بالشكل هو سبيلنا إلى التعرف على مادته حين ننظر إليه ، وهذه بدورها توحى إلينا بما نصطلح على تعريفه بالرأى أو الفكرة . وعلى هذا فنحن حين ننظر إلى رسم حرف بعينه يتحدد مفهومه عندنا . وكذلك الحال مع الكلمة المركبة من جملة حروف ، وهذه بدورها تنتهى بنا إلى بعض أخيلة تقابل ما يصطلح الناس على تعريفه بالصورة . على أن المصورين ، ولا سيما الأوربيين منهم ، برغم أنهم في الحقيقة قد أفلحوا في تصوير الشخص مبدعين إلى درجة قد تختلط الأمر فيها على الناظر حتى لا يستطيع أن يفرق بين الأصل والصورة ، فإن النقوش مع ذلك كله إنما تأتى بعد الحروف بفارق كبير في المرتبة . ذلك أن الحرف قد يجمع حكمة العصور الغابرة ويصبح بذلك وسيلة إلى التقدم الفكرى .

ويتوقف جمال الحرف وتناسقه على الذوق الشخصى في الغالب ، ومن هنا كان لكل قوم أبجدية خاصة بهم ، منها الهندية والسريانية والعبرية والقبطية والمعلقية والكوفية والكشميرية والريحانية والعربية

(١) وهو الرابع والثلاثون من القسم الأول .

حتى دخول تيمور الهند وقدم بابر ، جد السلطان أكبر ، إليها . ويختتم هذا القسم بذكر الأولياء الذين عاشوا في الهند والطرق الصوفية التي عرفت تلك البلاد ويعدها أربع عشرة طريقة .

أما القسم الخامس من الكتاب فهو صفحات قليلة ضمنها أبو الفصل ماثور أقوال السلطان أكبر هي وحكماً كثيرة ينسبها إليه .

\* \* \*

ويضم الكتاب جداول بيانية كثيرة وخرائط تخطط مضارب السلطان وما بها من طرق ودروب وما يقوم بها من أسواق . ويزين المخطوط ، الذى اعتمدنا عليه في هذا المقال ، مجموعة كبيرة من اللوحات الفنية الدقيقة المذهبة تحوى أشكال الأسلحة المختلفة والدروع والرايات والبنود فضلاً عن صور السروج الفاخرة والآلات الموسيقية والطبول العسكرية . ومنها ما يعرض علينا كذلك صوراً لدور الصناعة إذ ذاك وحفلات الاستقبال والمباريات الرياضية المختلفة .

وقد نقل بعض المستشرقين أجزاء من هذا السفر الضخم إلى لغاتهم . والترجمة الوحيدة الكاملة التي ظهرت له هي التي بدأها المستشرق الإنجليزي H. Blochmann وأكملها H.S. Jarrett وظهرت بكلكتا عامى ١٨٧٣ و ١٨٩١ في مجلدين ضخمين يضمن ألفا وسبعائة واثنين وخمسين من الصفحات ، وقد ألحق بها مجموعة من الصور تمثل جانباً كبيراً من لوحات المخطوط .

وما يعيب أبا الفضل في كتابه هذا هو أنه يجعل البلاد شاه محور حديثه على الدوام ، فكل ما يجرى في الدولة عنده هو رهن مشيئته ، وكل ما ينتهى إليه من نتائج وفعال هي جميعاً مستمدة منه . على أن هذا لا يقلل بطبيعة الحال من قيمة ما كتب ولا يبغض من شأن تلك المعلومات المفصلة الدقيقة التي ذكرها لنا عن

والفارسية والخميرية والبربرية والأندلسية والروحانية وغيرها من طرائق الكتابة القديمة العديدة .

واختلاف رسم الحرف في تلك الطرائق المتعددة مرجعه إلى استخدام الأقواس والخطوط المستقيمة وتناسقها . ففي حين يتكون الرسم الكوفي من قوس في سده وخطوط مستقيمة في خمسة أسداسه الأخرى فإن الخط المعقل لا تدخل الأقواس في رسمه على الإطلاق . ولعل هذا هو السر في أننا نجد نقوش الأبنية القديمة قد كتبت في الغالب به .

هذا وما يناسب الكتابة هما اللونان الأبيض والأسود فضلاً عن تناسبهما معاً ففي استخدامهما راحة للناظرين .

ويروج في إيران وتوران والهند وتركيا ثمان طرائق للكتابة ، لكل طريقة منها أنصارها . ومن هذه الطرائق ست استحدثت عام ٣١٠ هـ بعناية ابن مقلة أخذاً من الخط المعقل والخط الكوفي ، وهى : الثلث والتوقيع والمحقق والنسخ والريحاني والرقعة . ويضيف إليها البعض خط الغبار وينسبونه إليه كذلك ، كما ينسب البعض خط الثلث إلى ياقوت غلام الخليفة المعتصم .

والنوع السابع من هذه الخطوط هو التعليق ، وهو مشتق من الرقعة والتوقيع . والخطوط المستقيمة فيه قليلة . وقد أدخل عليه خواجه تاج سليمان كثيراً من التحسينات ، وكان يجيد كذلك رسم الخطوط الأخرى ، وينسب البعض إليه ابتكار هذا الخط .

أما النوع الثامن الذى أذكره فهو النستعليق ويقوم أساساً على الأقواس . ويذكر البعض أن مير على تبريزى ، معاصر تيمور ، هو الذى اشتقه من النسخ والتعليق ، وهو قول غير صحيح إذ توجد بهذا الخط كتب سابقة على عصر تيمور .

ويقدر البادشاه فن الخط حق قدره ، ويهتم اهتماماً شديداً بطرائق رسمه المختلفة ، مما أدى إلى ظهور عدد

كبير من مهرة الخطاطين كانت لهم الخطوة عنده . والمتفنن الذى عقدت له الزعامة على الخطاطين في ظل رعايته هو محمد حسين كشميرى ، وقد أنعم عليه بلقب « زرين قلم » أى صاحب القلم الذهبى . وقد فاق في فنه أستاذه مولانا عبد العزيز بالناسق الملحوظ عنده في مداته وأقواسه ( يقصد بالمئات مثل حرفى ف - ب وبالأقواس مثل ح - ن ) . ويعده النقاد نظير الملا مير على . ولا يسعنى إلا أن أشير هنا إلى جملة من مشاهير الخطاطين في عصرنا ، ومنهم ملا باقر بن ملا مير على الشهير ومحمد أمين مشهدى ومولانا عبد الحى ومولانا داورى ومولانا عبد الرحيم ونظام قزوينى وعلى شامان كشميرى ومير عبدالله ونور الله قاسم أرسلان .

هذا وتنقسم مكتبة البادشاه إلى عدة أقسام فضلاً عن فرع كبير لها في الحرم . ويصنف كل كتاب في هذه الأقسام تبعاً لأهميته وقيمة العلوم التى يتناولها ، فترى كتب الإنشاء ودواوين الشعر وتآليف الهنود والفرس واليونان والكشميريين والعرب كلا في مكانه الخاص به على وجه الدقة . وفي كل يوم يتقدم نفر من المتخصصين بقدر من هذه الكتب إلى البادشاه ويقرأونها له<sup>(١)</sup> . ولم يكن البادشاه يحرص على الاستماع إلى ما بكل كتاب من أوله إلى آخره فحسب ، بل إنه كان كذلك يضع بقلمه إشارة خاصة عند الموضع الذى تتوقف عنده القراءة . كما كان يكافئ القارئ بالذهب أو الفضة وفقاً لأهمية الكتاب وعدد الصفحات التى قرأها منه . ولم يكن يهمل من الكتب المشهورة إلا القليل فلا تقرأ في ندواته ، وهى التى تخلو من الحقائق التاريخية عن العصور الغابرة أو عجائب العلوم أو النكات الفلسفية التى لا تخفى على فطنة البادشاه . ولم يكن كذلك ليسأم

(١) أدى اضطراب حياة أبيه همايون إلى حرمانه من قدر وافر من التعليم في الصغر فشب ولم يكن يحسن القراءة والكتابة ، ومع ذلك فقد فاضت حياته بالنشاط العقلى إذ كان قوى الملاحظة كلفاً بالمعرفة ، فتعلم عن طريق السماع ، وكانت ذاكرته القوية تستوعب كثيراً مما كان يقرأ في حضرته .

أبداً أو يمل حين يقرأ عليه الكتاب الواحد للمرة الثانية حتى ليصغى إليه عندئذ باهتمام أكثر من ذي قبل .

ومن الكتب التي كان القراء يتداولون قراءتها على الدوام في حضرته : أخلاق ناصري<sup>(١)</sup> وكيماي سعاد<sup>(٢)</sup> وقابو سنامه ومؤلفات شرف المنيري وككستان وحدائق الحكيم سنائي والمثنوى المعنوي والبوستان والشاهنامه ومثنويات الشيخ نظامي ومؤلفات خسرو (الدهلوي) ومولانا جامي ، ودواوين الخاقاني والأنوري ، فضلاً عن العديد من كتب التاريخ . كذلك ترى المترجمين منكبين على ترجمة الكتب الهندية واليونانية والعربية والفارسية فنقل قسم من زيچ جديد ميرزاي باشراف مير فتح الله شيرازي ، كما نقل كذلك من الهندية (السنسكريتية) كشنجوشي وجنجاهدر ومهش مانند بعناية مؤلف هذا الكتاب . وتولى نقل المهاهارتا من الهندية إلى الفارسية نقيب خان وعبد القادر بدواني والشيخ سلطان تهايسري . وهذا الكتاب يحتوي على أكثر من مائة ألف بيت من الشعر ، ويعرف البادشاه هذا التاريخ القديم باسم رزمنامه (أى كتاب الحروب) وقد نهض هؤلاء العلماء الثلاثة أيضاً بنقل الرامايانا ، وهو من كتب الهندستان القديمة كذلك ، ويحتوى على ترجمة حياة رام جندراً فضلاً عن المسائل الفلسفية اللطيفة التي تكثر فيه<sup>(٣)</sup>. كذلك اضطلع الحاج ابراهيم

(١) وهو كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ، نقله إلى الفارسية نصير الدين الطوسي .

(٢) وهو لأبي حامد الغزالي وقد ضمنه الكثير من كتابه إحياء علوم الدين .

(٣) تشتمل الرامايانا على أربعين ألف بيت من الشعر ، وقد ظهرت هي والمهاهارتا قبل الميلاد بأربعة قرون ، وهما ملحنتا الهند الكبرى وأضخم آثار العالم الأدبية على الإطلاق ، وهما أقسام أسطورية يختلط التاريخ بها وأقسام أخرى أدبية ودينية .

والمهاهارتا قداسة عظمى عند الهنود حتى ليعدون قراءة ما تيسر منها مجلبة للرحمة والمغفرة . ويقول بدواني (ثان ص ٣٢٠) ، أنه قصد بهذه الترجمة أن يقف الناس على أساطير الهند القديمة ومعتقداتها ، كما عرفوا ذلك عند الفرس بطريق الشاهنامه .

سرهندي بترجمة كتاب آتهر بن<sup>(١)</sup> ، وهو أحد كتب الهند المقدسة الأربعة . كما نقل الشيخ أبو الفيض فيضى ، أخى الأكبر ، كتاب ليلالوتى من الهندية إلى الفارسية ، وهو من أهم كتب الرياضيين الهنود في الحساب . وأمر البادشاه مكمل خان كجراتى فنقل إلى الفارسية كتاب تاجك وهو كتاب معروف في الفلك . كما نهض ميرزا عبد الرحمن ، وهو الخانخانا (القائد العام) الحالى بترجمة سيرة بابر<sup>(٢)</sup> فاتح الدنيا من التركية (الجغتائية) إلى الفارسية وهي تعد ثباتاً للحكمة العملية . كذلك نُقل من الكشميرية إلى الفارسية تاريخ كشمير ، وذلك بعناية مولانا شاه محمد شاهبادهى ، وهو كتاب يتناول تاريخ كشمير فى الأربعة الآلاف سنة الماضية . كما نُقل من العربية إلى الفارسية كذلك معجم البلدان (لياقوت الحموى) ، واضطلع بهذا العمل جملة من المتخصصين فى العلوم العربية من أمثال ملا أحمد تهته وقاسم بيك والشيخ منور وغيرهم . ونقل مولانا شرى بدوره من الهندية إلى الفارسية كتاب هرى بنز وهو يحوى تاريخ كرشنا . كذلك عهد البادشاه إلى مؤلف هذا الكتاب (أى أبى الفضل نفسه) بنقل كتاب كليلة ودمنة إلى الفارسية من جديد<sup>(٣)</sup>. فنقلته بعنوان « عيار دانش » (معيار الحكمة) . والكتاب فى أصله مثال للحكمة العملية ولكنه ملئ بالتعقيدات البلاغية . وقد نقل هذا الكتاب إلى الفارسية أيضاً نصر الله المستوفى ومولانا حسين الواعظ ولكن أسلوبهما فى الكتابة ملئ بالمهجور من الاستعارات والمعانى والألفاظ . كذلك قام أخى الشيخ فيضى

(١) يذكر بدواني (ثان ص ٢١٢) أن هذا الكتاب تنفق بعض أحكامه مع أحكام الشريعة الإسلامية ، وقد أدى ذلك إلى دخول كثير من الهنادكة فى الإسلام .

(٢) هو جد أكبر ومؤسس الدولة المغولية بالهند .

(٣) هى فى الواقع إعادة كتابة الترجمة الفارسية الدرية لأبى المعالى نصر الله (ق ٥٦ هـ) بالفارسية الحديثة - وقد طبعت بكنبور عام ١٨٧٩ م .

النقاشين الأوروبيين البديعة التي ذاعت شهرتها في (١) الدنيا وما يلاحظ اليوم من دقة التفاصيل في اللوحات الفنية مع شيوع الاتقان فيها والجرأة في تنفيذها هو جميعاً مما لا تجد له مثيلاً ، حتى لترى الأشياء الجامدة بها وكأن الحياة قد دبت فيها .

وقد نبغ في هذا الفن أكثر من مائة من المصورين . أما من هم بسيلهم إلى النبوغ أو من يعدون في زمرة أواسط المتفنين فعددهم أكثر من ذلك بكثير . وهذا القول ينطبق على الهنادكة بدورهم ، ومنهم من تفوق لوحاتهم في إتقانها كل تصور حتى لا تجد في الدنيا إلا قليلين يقفون معهم على قدم المساواة (٢) .

وأحب أن ألفت النظر هنا إلى أن إمعان النظر في شخوص الأشياء ومحاكاتها بالرسم ، وهو ما يعده البعض من باب التسلية وإضاعة الوقت ، هو عند أصحاب العقول الراجحة مورد تستلهم الحكمة منه ، وترى من سموم الجهل . ولئن كان أصحاب التعصب الديني يضمرون لفن النقش عداً شديداً ، فما هم اليوم ترى أعينهم الحق في ذلك واضحاً جلياً . فقد حدث ذات يوم والبادشاه بين فريق من خاصته — وهو الذي أولى كثيرين شرف ممارسة فنه في حضرته — أن أفصح عن رأيه في التصوير فقال : « هناك كثيرون يكرهون فن النقش وإنى لأمقتهم بدورى ، ولقد يبدو لى أن المصور له طرائقه الخاصة في معرفة الله ، فهو حين يرسم كل ذى حياة ويتأمل في تكوير أطرافه الواحد بعد الآخر يشعر بعجزه عن أن يثبتها على لوحته على الوجه الذى أخرجهما عليه مبدعها ، ومن هنا تراه مضطراً إلى التفكير في الله الذى أبدع كل شيء خلقه فيزداد بذلك معرفة به تعالى » .

(١) لم يكن فنانون الهند مجهلون لوحات الأوربيين إذ كان البرتغاليون يحملونها إليهم .

(٢) Laurence Binyon. The Court Painters of the Grand Monghul. Oxford 1921.

أبو الفيض بترجمة قصة العشق الهندية « نل ودمن » إلى الفارسية شعراً من البحر الذى عليه مثنوى لىلى والجنون ، وهى قصة تثير العواطف والشجون ، وقد ذاع صيتها في الناس باسمها الهندى .

وبلغ من شغف البادشاه بالتاريخ أن أمر جملة من الكتاب وعلى رأسهم نقيب خان بكتابة سفر يؤرخ الحوادث التي شهدتها أقطار المسكونة السبعة في الألف عام الماضية ، وقد قمت بتقديم هذا الكتاب الذى يعرف باسم « تاريخ ألفى » (١) .

### فن النقش

تعرف محاكاة الأشياء رسماً بالتصوير ، وقد أظهر البادشاه منذ أول شبابه اهتمامه بهذا الفن وأولاه كل تشجيع وعناية بوصفه موضع درس وترفيه معاً . وعلى هذا فقد ازدهر هذا الفن في عهده وذاع واشتهر . وكانت أعمال النقاشين تعرض عليه بواسطة الكتاب والرؤساء في بلاطه مرة كل أسبوع فيكافئ المبرزين منهم أو يزيد في مرتباتهم . وأدى ذلك إلى أن توفر للفنانين ما يحتاجونه من أدوات أثمانها محددة وتطويرها مطرد . كذلك تقدمت طرائق تركيب الألوان وخلطها تقدماً ملحوظاً حتى بلغت النقوش درجة بالغة من الإتقان : واستتبع ذلك كله ظهور كثير من النقاشين المبدعين حتى لترى لوحاتهم الفنية تليق بأن تقف مع لوحات بهزاد (٢) جنباً إلى جنب ، فضلاً عن لوحات

(١) بداوى ثانى ٣١٧ . هذا وقد ادعى المهدية في ذلك الوقت فريق من الناس بالهند وغيرها استناداً على قول بظهور مهدى يهدى الأمة على رأس كل ألف سنة . وقد أحسن البادشاه أكبر الإفادة من هذه الفرصة لتحقيق هدفه في تأليف أهل الهند جميعاً على اختلاف مللهم ونحلهم في ظل مذهبه الذى ابتكره وهو « دين إلهى » وهو فيه بمثابة الإمام العادل الذى تجب على الناس طاعته ، وإن لم يرغب الناس أبداً على الدخول فيه .

(٢) هو مصور فارسى ذائع الصيت عاش عند السلطان إسماعيل الصفوى وتنتشر لوحاته في متاحف كثيرة .

اليوم الأول ، الأول والثاني ، وفي اليوم الثاني ، الثاني والثالث وفي اليوم الثالث ، الثالث والرابع وهكذا . . » وإلى جانب هؤلاء كان هناك عدد آخر من الرجال الأكفاء كذلك احتياطاً للأولين يحلون محل من قد يضطره اضطراره ببعض المهام إلى الانقطاع عن هذا العمل . ويعمل الواحد من هؤلاء ليوم واحد فقط ويعرفون باسم « كُتِل » ، أى رجال الاحتياط .

وعمل هؤلاء هو تدوين أوامر البادشاه وتسجيل أفعاله وكل ما يصدر عن رؤساء دولته بدورهم كذلك . فهم يثبتون في أوراقهم ما يتناوله البادشاه من صنوف الطعام والشراب ، ويدونون مواعيد نومه وقيامه ، ويسجلون ما يجرى من الاستقبالات في البهو الرسمي ، ويرصدون الأوقات التي يقضيها البادشاه في الحرم ، ومواعيد ذهابه إلى الاجتماعات ، العامة منها والخاصة .

كذلك عليهم أن يصفوا عندهم رحلات الصيد وطرائق ذبح الحيوانات ، ويرصدون وقت مسير البادشاه لحظات توقفه ، وطريقة سلوكه ، بوصفه إمام الأمة ، والمراسيم التي تؤدي له ، وما يصحبها من حلف الناس اليمين له بالطاعة والولاء ، وما يبديه من الملاحظات في ذلك . ويسجلون كذلك أسماء ما يُقرأ في حضرته من الكتب ، وما يتصدق به من الصدقات ، وما يهديه من الهدايا ، وما يفرضه على نفسه من الفرائض يؤديها كل يوم أو كل شهر . ويثبتون عندهم كذلك تعييناته في مناصب الدولة واختياره لأصحابها ، وبيان تكوينات فرق الجيش والمرتبات ، والإقطاع ، والالتماسات بزيادة المرتبات ، والأراضي المعفاة من المكوس ، وزيادة المكوس أو تخفيضها ، والعقود ، والتحويلات المالية ، والجزية ، والرسائل الرسمية ، والمراسيم . كما يسجلون الوثائق التي يوقعها البادشاه ، وأوقات وصول التقارير من مختلف الجهات والتعليقات التي تدون عليها ، وساعات

وبتشجيع البادشاه لهذا الفن ظهر عديد من اللوحات الفنية الفريدة ، وزينت الكتب الفارسية في الشعر والنثر بالصور وضمت بين دفتيها عدداً كبيراً من اللوحات . فيها هي ذى قصة حمزة التي تقع في اثني عشر مجلداً قد قام مهرة النقاشين بتصوير ما لا يقل عن أربعائة وألف موضع منها . وكذلك فعلوا بجنكيز نامه وظفر نامه<sup>(١)</sup> ، وهذا الكتاب ، ورزمنامه وراماينا ونل دمن وكليلا ودمنة وعيار داناش وغيرها من الكتب . بل لقد جلس البادشاه نفسه إلى المصورين ليصوروه وأمر بتصوير كل أعيان دولته كذلك . وجُمعت كل هذه التصويرات في ألبوم ضخم خلد ذكرى الغابرين وضمن الخلود للحاضرين . ولم تكن رعاية البادشاه وتشجيعه وفقاً على النقاشين فحسب بل تعدتهم كذلك إلى المزخرفين والمذهبين والرسامين والوراقين .

### النموذج الثاني

آيين واقعة نويس<sup>(٢)</sup> :

### لائحة كتاب الوقائع

إن إنشاء السجلات والاحتفاظ بها هو من الإجراءات الحسنة بالغة الأهمية بالنسبة للدولة ، وهو مما لا بد منه لكل طبقة من طبقات المجتمع كذلك .

ولئن كان قد قام في الماضي ما يشبه هذه الإدارة إلا أن أهدافها الواضحة لم تتحقق إلا في العهد الحالي . ولقد ندب البادشاه لهذا الأمر أربعة عشر نفرأ من الكتاب الأمناء ذوى الخبرة والمهارة والجلد ، على أن ينوب اثنان منهما كل يوم ، وبهذا يصيب الدور كل اثنين منهما معاً مرة كل أسبوعين ( بمعنى أن يعمل في

( ١ ) وهو في سيرة تيمور .

( ٢ ) ويعرف أيضاً باسم « مجلس نويس » وهو الآيين العاشر

من القسم الثاني .

قدوم رجال الحاشية وانصرافهم ، والأوقات المحددة للتفتيش على الحرس ، وأخبار الوقائع الحربية ، والانتصارات العسكرية ، وشروط معاهدات الصلح ، وأخبار وفيات الأعيان ، ومبارزات الحيوانات والرهان عليها ، ووسم الخيول ، وأخبار الجرائم الكبرى ، وما يصدره البادشاه من عفو عن مرتكبيها ، ومحاضر الاجتماعات العامة ، وأخبار الزواج والولادة ، ومباريات الكرة والصولجان (البولو) والتخطيط والرند والشطرنج وألعاب الورق وغيرها ، والظواهر غير العادية ، وصنوف المحاصيل ومقاديرها على مدار السنة ، والتقارير التي ترد عن مختلف الحوادث والوقائع :

وقد جرى الرسم على أن يطلع أحد رجال الحاشية على هذه التسجيلات يوماً بيوم وينقحها ثم يعرضها على البادشاه ليصدق عليها . ومن ثم ينسخ الكاتب نسخة واحدة من كل تقرير يوقع عليها ثم يبعث بها بعد ذلك إلى من يحتاجون إليها بوصفها مستنداً رسمياً ، وذلك بعد أن يصدق عليها أمين المراسم وأمير العرض والموظف

الذي قام بعرضها على البادشاه . وتعرف هذه الوثيقة عندئذ بالذاكرة .

وهناك طائفة من المحررين حسنى الخط يتلقون هذه المذكرات بعد أن تستكمل دورتها فيحتفظون بها عندهم ويكتبون تلخيصاً وافياً لها . وبعد أن يوقعوا على هذا التلخيص يبعثون به إلى الجهات التي كانوا قد تسلموا المذكرات الأولى منها ، وذلك بعد أن يوقع التلخيص كاتب الوقائع وصاحب الرسائل وأمير العرض ورئيس الإدارة ويمهرونه جميعاً بأختامهم . ويعرف هذا التلخيص بالتعليق ويعرف كاتبه بكاتب التعليق . ويوقع هذا التعليق كذلك على الصورة المبينة بعاليه ويمهر بأختام الوزراء .

وهدف البادشاه من وراء ذلك كله هو تصريف كل شأن من شئون الدولة على خير وجه دون أدنى زيادة أو نقصان . ويقصى عن الديوان كل من تثبت خيانتة لواجب الأمانة ويكافأ المخلصون على إخلاصهم ، وبذلك يؤدي كل عامل نشاط عمله بلا خوف وينزل العقاب بكل من يثبت كسله وإهماله .